
عقائد الإسلام
(١)
الإمام يوسف القرضاوي
وجود الله
شباب
النادي الشبابي
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

عقائد الإسلام
(١)

# وجود الله

الإمام يوسف القرضاوي

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠ ٢
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦ ٢



اسم الكتاب: وجُود الله
عقائد الإسلام (١)
الطبعة السادسة ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
اسم المؤلف: الإمام يوسف القرضاوي
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١٠٤ صفحة ١٢ × ١٧ سم
رقم الإيداع: ١٩٨٩/٥٩٣٧
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-307-196-0

بسم الله الرحمن الرحيم

# تمهيد

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى .

وبعد .. فهذا بحث في أولى القضايا الكبرى في العقائد والأديان والفلسفات :

وقضية وجود الله ، منشئ الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

لقد كانت هذه القضية قليلة الأهمية عند علمائنا القدامى الذين اشتغلوا بعلم التوحيد والكلام ، حيث لم تكن تشغلهم قضية وجود الله كما شغلتهم قضية صفاته تعالى .

فاشتغلوا بالصفات الإلهية : هل هي عين الذات الإلهية أم غيرها ، أم هي لا عين ولا غير ؟!! والصفات الخبرية التي يوهم ظاهرها مشابهة الخلق : هل تؤوّل أم تبقى كما

هي بلا تشبيه ولا تخييل ؟! .. معركة حامية الوطيس بين أهل السنة والمعتزلة من جانب ، وبين أهل السنة أنفسهم من سلفية وأشعرية من جانب آخر .

أما وجود الله فكان عند الأطراف كلها من الضروريات التى تقتضيها الفطرة ، وإن لم تخل كتب الكلام والفلسفة من إقامة الدليل على وجوده سبحانه باعتباره محدث الكون أو واجب الوجود .

أما المتكلمون ، فعوَّلوا على دليل الحدوث ، على ما في عرضه من جفاف ، وما في مضمونه من قصور . يقول هذا الدليل : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، لا بد له من محدث ، وهو الله تعالى .

وفي هذا الدليل ثغرات ذكرها المتكلمون أنفسهم ، وبيَّنها الفلاسفة وغيرهم .

وأما المتفلسفة فعوَّلوا على دليل الإمكان : الذي أشرنا إليه في صلب البحث .

وقليلون من عوَّلوا على الأدلة الكونية التى بثَّها الله في الأنفس والآفاق ، مثل الجاحظ ، وابن القيم .

ومنذ أكثر من قرنين تعرَّض الدين في أوربا لمحنة شديدة ، بسبب موقف الكنيسة هناك من العلم والعلماء ، والفكر والمفكرين ، ومما جعل كثيراً من الناس يكفرون بالدين وبالله ، وإن كانوا في الواقع لم يكفروا إلا بدين الكنيسة وإلهها ، ولو أتيح لهم أن يعرفوا الإله الحق ، ودينه الحق ، لعادوا إلى حظيرة المؤمنين .

ومهما يكن من تعليل إلحادهم في ذلك الحين فقد ألحدوا ، وتطاير شرر الإلحاد من أوربا إلى غيرها ، وقامت على مبدأ الإلحاد دول كبرى تنص دساتيرها على أن : لا إله ، والحياة مادة . كما في دستور روسيا السوفييتية أم الاشتراكية ومن دار في فلكها من الدول .

وقد صار العالم الآن قرية كبرى - كما قال بعض الفلاسفة - فسرت عدوى الإنكار فيه وأشد وأسرع من عدوى الأمراض والأوبئة ، فقد اتخذت الدول من إجراءات الوقاية والحجر الصحِّي ما يحول دون انتشار الأوبئة الفتَّاكة ولم تتخذ معظمها مثل ذلك في الحيلولة دون انتشار الأفكار الضارة ، والعقائد المخرِّبة ، وهي أشد فتكاً وأعمق خطراً .

فلا غرو أن ابْتُلِيَ عالمنا العربي والإسلامي بفئة من الملاحدة ، وتعلموا في أوربا وأمريكا وشربوا الثقافة الغربية المسمومة ، وقلدهم غيرهم ممن تعلموا في ديارنا ، في مدارس ومناهج ، صنعها المستعمرون ووجهوها كما شاءوا . وزاد الطين بلة أن أصبح للشيوعية نفوذ في ديار الإسلام لظروف وأسباب داخلية وخارجية ، وفُتن بعض الشباب بالاشتراكية ، ولعبت بعقولهم الماركسية . بتزيين أبالستها الذين صار لهم في أجهزة التوجيه والإعلام مكان أي مكان ، وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا مَنْ يكتب في الصحف وينشر في الكتب إنكار الله جهرة علانية في قلب بلاد العرب والإسلام .

ووجدنا هذه الأفكار تُحدث بلبلة واضطراباً في أنفس كثير من الشباب الطيبين الذين ليسوا بملحدين ، ولا يساريين ولا يمينيين . وكثيراً ما جاءتني أسئلة في الإذاعة[١] وفي أعقاب المحاضرات والندوات يسأل أصحابها : ما الدليل على وجود الله تعالى ؟ وهم لا يشكون في وجوده سبحانه ولكنهم يريدون أن يقنعوا الشاكين ويفحموا المشككين .

---

(١) كتبت هذه المقدمة قبل أن ينشأ (التلفاز) في قطر .

ولهذا قلت لإخواننا العلماء في قَطَر والمملكة العربية السعودية حين سمعت بعضهم يجادل في قضية الصفات بين السَلَف والخلف ، وما فيها من جدل وكلام طويل الذيول : إن المعركة اليوم ليست مع الأشاعرة ولا الماتريدية ولا المعتزلة ولا الجهمية . إن معركتنا الكبرى مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله ولا نبوّة ولا كتاب .

ليست معركتنا مع الذين يقولون عن الله تعالى : ليس له مكان ، بل مع الذين يقولون : ليس له وجود ، وعلينا أن نخلقه ، كما قال أحدهم !!

ليست معركتنا مع الذين يُؤولِّون صفات الله تعالى ، بل مع الذين يجحدون الله بالكلية .

وأي تحويل للمعركة عن هذا الخط ، يعتبر توهيناً للصف ، وفراراً من الزحف ، وإعانة للعدو .

ومن الإنصاف أن أقول : إني وجدت تجاوباً رائعاً من علماء قَطَر والمملكة العربية السعودية نحو هذا الاتجاه ، فيما عدا القليل منهم .

ومن هنا وجدت : أن إقامة الأدلة على وجود الخالق جلَّ جلاله ، جزء من معركتنا مع الإلحاد ، لتسليح الشباب المؤمن ، وتثبيت الشباب القلق ، وإلزام الفئة المعاندة .

إن إثبات العقائد الأخرى من رسالة محمد ﷺ والإيمان بالآخرة ، وإثبات ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق، لا يتم ولا يستقيم إلا إذا قام الأساس الأول للعقيدة، وهو الإيمان بوجود الله . وإلا فلا يُجدي الكلام عن محاسن الإسلام ومزايا الشريعة الإسلامية ، مع من لا يؤمن بالأديان كلها ، لأنه يشك في وجود الله ذاته أو يكابر فيه .

ومن أساتذتنا كالدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق (رحمه الله)[1] ـ مَنْ يرى أن الإيمان بوجود الله أمر فطرى ، لا يحتاج إلى إقامة أدلة نظرية عليه .

وهذا صحيح . لكن إذا نفقت سوق الشبهات ، وانتشرت سموم الشكوك وجب أن نقاومها بسلاحها نفسه مخاطبين العقل ، والفطرة معاً . وهدفنا ـ كما قلت ـ أن نُسَلِّح الفئة المؤمنة الواعية لترد على الجاحدين ، وتنقذ المتحيرين ، وتقتلع بذور الشك من قلوب الشاكين .

---

(١) في كتابه «الإسلام والعقل» وفي رسالته عن «الإيمان» .

ومن الخطأ أن يُحسب القرآن كتاباً يُنشئ العقائد بالأخبار فحسب ، كما هو شائع من الاستدلال بآيات القرآن على أنها أدلة نقلية ، في مقابل الأدلة العقلية .

كلا .. إن القرآن لا يكتفي بالخبر عن الحقائق الكبرى ، بل يتبعة بإقامة البراهين الساطعة عليها ، ودفع الشبهات عنها ، بحيث يُقنع العقل ويرضي الفطرة .

هكذا وجدنا القرآن الكريم في قضية وجود الله . وفي قضية التوحيد ، وفي قضية الوحي والرسالة ، وفي قضية البعث والجزاء ..

وقد استعنت بما كتبه القدماء والمحدثون في هذا الموضوع ، محاولاً تجليته ، وضرب الأمثلة المتنوعة ، لزيادة الإيضاح والإقناع ، ولعل الجديد فيه هو ترتيب الموضوع وتقسيمه وتنويع الأدلة عليه ، مع ربط ذلك كله بالقرآن الكريم . فهو قد أرشد إلى أصوال هذه الأدلة وأنواعها وأشار في آياته البيِّنات إلى أمهاتها .

وقد كتبت هذا البحث في بادئ الأمر لطلاّب المرحلة الثانوية من المعهد الديني في قَطَر . باعتباره جزءاً من المقرَّر عليهم في دراسة العقيدة أو علم التوحيد .

وهذا ـ فيما أعلم ـ اتجاه جديد في تدريس العقيدة في المعاهد الدينية والكليات الشرعية أو الإسلامية .

فالسائد في تلك المعاهد هو دراسة العقائد على الطريقة التي كُتبت بها في العصور الماضية ، والاهتمام بنفس القضايا التي اهتم بها القدماء والمتأخرون : مع ما جَدَّ في عصرنا من قضايا فكرية جديدة . وما جَدَّ من معارف كونية وإنسانية لا بد من استخدامها في ميدان العقيدة .

ثم رأيت من الخير أن أنشر هذا البحث بعد أن زدت عليه ، وأضفت إليه ، ونقَّحت فيه ، راجياً أن ينفع الله به طلاّب الحقيقة عامة ، وطلاّب الدراسات الإسلامية خاصة .

وما توفيقي إلا بالله . .

الفقير إلى عفو ربه

**يوسف القرضاوي**

# وجود الله فوق الجدل والشبهات

إن وجود الله هو أول الحقائق وكبراها وأظهرها ، دلَّت على ذلك الفطر والعقول والبصائر ، وهدى إليه العلم والوحي والتاريخ .

والذين جادلوا في وجود الله قلة مغمورة، في كل عصر ، ومعظمهم ممن جرفتهم الشهوات ، وغلبتهم الغرائز الدنيا ، فبرَّروا هبوطهم وانحرافهم بالإلحاد ، وإنكار وجود الخالق الأعلى ، حتى لا يحاسبهم أحد ، ولا يحاسبوا أنفسهم على السقوط والانغماس في الملذَّات البهيمية .

ولا غرو أن قال بعض المفكرين في إلحاد هذا النوع من الناس : إنه إلحاد بطنٍ وفرجٍ لا إلحاد عقل وفكر . يعني أنهم يَنْحَلُّون أولاً ثم يُلْحِدُون ثانياً ، وبتعبير علماء النفس : إن الإلحاد والإنكار عندهم ضرب من الحيل اللاشعورية لجأوا إليه لتبرير انحرافهم والدفاع عن

سقوطهم وسوء سلوكهم ، وتغطية ضعفهم أمام الشهَوات والملذَّات .

ومن هنا لم يكن هَمّ الأنبياء منصرفاً إلى إثبات وجود الله ـ سبحانه ـ فقد كان هذا أمراً مفروغاً منه ، ومسلماً به لدى أقوامهم . إنما كان أكبر همِّهم تنقية الإيمان بالله مما شابه من أدران الوثنية ونجاسة الشرك الذي أفسد عقول البشر ، وجعلهم عبيداً لبعض الأشياء التي سخَّرها الله لهم ، وجعلهم سادة عليها . كان أكبر همهم الدعوة إلى التوحيد ، كان أول ما يدعو إليه الرسول، وأبرز ما ينادي به قومه: أن ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣) ، ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦)

ولما بُعث محمد ﷺ وجد قومه ـ كما وجد سائر الأمم ـ يعبدون مع الله آلهة أخرى من مخلوقات الأرض وكواكب السماء ، ولكنهم لم يجحدوا وجود الله ، ولا جادلوا فيه ، وهذا ما قرَّره القرآن بأجلى بيان : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ (الزمر:٣٨). وإذا كان هناك فئة قليلة من الدهريين الملحدين ، فإن القرآن لم يقم

لهم وزناً . ولم يعتد بوجودهم ، لأنهم يتحدُّون الفطرة والبداهة والحس . ووجَّه خطابه - أكثر ما وجَّهه - إلى الذين أشركوا ، ولهذا كان أول ركن في رسالة الإسلام ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (النساء: ٣٦).

وكانت دعوة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض وأباطرتها تتمثل في هذه الآية : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤) .

## • سبب الإلحاد في أوربا

ولكن ظروفاً خاصة مرت بأوربا المسيحية في القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله ، جعلت كثيراً من المتنورين من أهلها يكفرون بالدين ، ويجحدون الله أو يشكُّون فيه ، والواقع أنهم لم يكفروا بالدين الحق ولا بالإله الحق ، وإنما كفروا بإله الكنيسة الغربية ودينها .

ولقد وقفت الكنيسة في أوربا تؤيد الظلام وتحارب النور ، وتؤيد الجهل وتحارب العلم ، تؤيد الإقطاع وتحارب العدل ، وتؤيد الملوك وتحارب الشعوب ، تؤيد الخرافة وتحارب الفكر . . إلخ . فلما اندلعت الثورات

الداعية إلى الحرية والمساواة كان نداء رجالها « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

لقد حكمت الكنيسة يومئذ بإعدام الألوف من العلَماء والمفكرين ، وتخريق أجسادهم بالمسامير ، بل حاكمت جثثهم بعد موتهم .

فعلت الكنيسة ذلك كله باسم الدين ، وباسم الله ، وباسم المسيح . فلما رأى ذلك أحرار الفكر ، وعشاق العلم ، كفروا بإله تمثله هذه الكنيسة ورجالها . وآمنوا بما عندهم من العلم .

وأعظم ما زهَّد الناس في الدين فساد دعاته ، وانحراف منتحليه ، خصوصاً في دين يحجر على الناس أن يعرفوا الله ، أو يتصلوا به ، أو يطرقوا بابه إلا عن طريق طبقة كهنوتية خاصة تسمى « رجال الدين » ، ومن هنا قامت في أوربا مذاهب تقوم فلسفتها على الحس والمادة ، وتنكر ما وراء ذلك من « الغيبيات » فلا إله ولا وحي ولا ملائكة ولا آخرة ولا جنة ولا نار .

وبلغ الجحود والإلحاد قمته في المذهب « الماركسى » الذى تبنَّى ما زعمه « نيتشة » : أن « الدين أفيون الشعوب »

وما زعمه غيره من أنه « ليس إلا حيلة اخترعها الأغنياء والأقوياء ، ليلهوا بها الضعفاء والفقراء ، ويمنوهم بنعيم الآخرة ، لينفردوا هم بنعيم الدنيا » . وقال كارل ماركس في ذلك : « إن الله لم يخلق الإنسان . بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله ».

## • رذاذ من الإلحاد يصيب الشرق

ولما أخذ الغزو الفكري يزحف على ديار العرب والإسلام ، انتقل رذاذ من موجة الإلحاد الغربي إلى العالم الإسلامي ، فوجِد من أبناء المسلمين[1] من يرتاب في وجود الله أو يجادل فيه ، بعضهم من أولئك الذين تخرَّجوا في جامعات الغرب ، وعلى أساتذته ، وبعضهم من الذين تأثروا - أخيراً - بالدعاية الماركسية ، والشيوعية ، وكِلا الفريقين طبَّق على الدين هنا ما ذكره الغربيون عن الدين هناك ، مع الفرق الواضح بين الإسلام في الشرق والمسيحية في الغرب .

---

(١) بدأ الإلحاد أولا بين النصارى مثل شيلي شميل في لبنان وسلامة موسى في مصر ، ثم انتقلت العدوى إلى المسلمين .

هؤلاء يزعمون أنهم مجدِّدون وهم في الواقع مقلِّدون ، يفكرون برؤوس الغربيين ، ويردِّدون أفكار فريق منهم عفى عليه الزمن ، ومضى عليه قرن أو قرنان ، ومع هذا يدعون أنهم علميون وتقدميون ، وهم كما وصفهم القرآن : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ (الحج:٨).

## ● دلائل وجود الله

ومن باب التنزل مع هؤلاء المرتابين والمجادلين ، اضطر الذين يكتبون في عقيدة الإسلام أن يبدأوا بإقامة البراهين على وجود الله سبحانه ، ليرتكز الإيمان على أساس عقلي متين ، مع أن الأمر أبسط وأوضح من أن يحتاج إلى برهان أوكما قال الشاعر :

**وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل**

فما البراهين والأدلة التي يقدِّمها المؤمنون لإثبات وجود الله ـ عز وجل ـ لدى الشاكين والملحدين ؟

* * *

# دلالة الفطرة

إن أول دليل على وجود الله - جل جلاله - ليس شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان. إنه الفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها. إنه ذلك الشعور الطبيعي البصير الغامر، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية، كائناً غير محدود ولا متناه، يهيمن على كل شيء، ويُدبِّر كل أمر يُرْجَى ويُخْشَى، ويُعَظَّم ويُقصَد. شعور ينبع من أعماق الإنسان، ويستمَد من كيانه كله، لا من عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب.

يُعبِّر الفيلسوف الشهير «ديكارت» عن هذا الشعور الفطري فيقول «إني مع شعوري بنقص في ذاتي، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة. وأراني مضطراً إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلّية بجميع صفات الكمال، وهي الله».

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكي نفساً ، رق حجابه وتفتحت عين بصيرته ، وارتفع عن جاذبية الطين ، وحلّق في أجواء الروح ، وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ، ويغمر كيانه كله ، فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربه ـ سبحانه ـ خارج عن ذاته وكيانه هو ، بل يشعر أن وجود الله أظهر من كل شيء ، بل هو دليل كل شيء ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣).

يروون أن أحد العلماء الصالحين الموقنين قيل له يوماً : إن فلاناً من علماء « الكلام » قد أقام على وجود الله ألف دليل . فقال : لأن في نفسه ألف شبهة !!

وهذا جواب مَنْ وضح الأمر في نفسه بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان . على نحو ما قال الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل !

وسئل بعض العارفين : بِمَ عرفتَ ربَّك ؟ فأجاب : عرفت ربي بربي !

ويقول ابن عطاء الله السكندري في هذا المعنى :

« إلهى ؛ كيف يُستدل عليك ، بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المُظهر لك،متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليكَ؟ ومتى بعدتَ حتى تكون الآثار هي التي تُوصِّل إليك»؟ هذا ما نقصده بالفطرة : إن الإنسان ـ سواء أكان جاهلاً أم عالماً ـ لو جرَّد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذى يعيش فيه ، والمذهب الذي ينتمي إليه ، ثم تفكّر بعد ذلك في الكون وفي نفسه ، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً ، ليجد نفسه ساجداً خاشعاً أمام ربه العلي العظيم ، الرحمن الرحيم [1].

---

(١) لعل هذه الفطرة العاقلة أو العقل الفطري ، هي ما يطلق عليه الأستاذ العقاد « الوعي » ، وفي رأيه أن مسألة وجود الله « وعي » قبل كل شيء : فالإنسان له « وعي » يقيني بوجوده الخاص ، وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعي » يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه ، والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله أو من ظاهره وباطنه ، وما يعيه وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير .

إن الـذي علَّـم الإنسـان أن ١+١=٢ بـدون برهـان ولا مقدمات منطقية هو الذي علَّمـه أن لـه إلهـاً لا يستغنى عنه ، بدون حاجة إلى استدلال ، ولا انتقال مـن معلـوم إلى مجهول ، ومن مقدمات إلى نتائج .

هـذا الشعور الفطري قـد يختفـي في ساعات العافيـة والرخاء والغنى الذي يُطغـي الإنسـان ويحجبـه أحيانـاً عـن رؤية نفسه على حقيقتها ، فإذا نزل بالإنسان شـدائد قـاهرة ، ذاب الطلاء الكـاذب الـذي غشـى الفطـرة الأصـلية ، ورجـع الإنسان إلى ربه ضارعاً داعياً مُنيباً إليه .

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن « الله » فقال لـه : ألم تركب البحر ؟ قال : بلى . قـال : فهـل حـدث لـك مـرة أن هاجت بكم الريح عاصفة ؟ قال : نعم . قال : وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم . قال : فهل خطـر ببالك ، وانقدح في نفسك . أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء ؟ قال : نعم . قال جعفر : فذلك هو « الله » .

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢).

والقرآن الكريم يصوِّر أصالة هذه الفكرة، وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويراً بليغاً، يأخذ بمجامع القلوب، ويسوقها إلى ربها سوقاً حثيثاً، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها. على أن تؤمن به وتعبده وتوحده. فلنسمع إليه يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣) ؟.

ولما كان هذا الشعور أمراً فطرياً كما تبين لنا، وجدنا أصل الإيمان قدراً مشتركاً بين جميع الأمم، وفي مختلف الأقاليم، وفي شتى عصور التاريخ، وإن كان الكثيرون قد

انحرفوا عن الإيمان الصحيح ، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدَّرت نقاءه ، وأفسدت جوهره .

يقول الفيلسوف المعروف هنري برجسون « لقد وجدت وتُوجد جماعة إنسانية من غير علوم وفنون وفلسلفات ، ولكن لم تُوجد قط جماعات بدون ديانة » .

ويقول المؤرح الإغريقي القديم بلوتارك : « لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا مدارس ، ومدن بلا قصور ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد » .

والدارسون لتاريخ الأديان ، يؤكدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغنى عن الإيمان والدين .

يقول الفيلسوف « رينان » في كتابه « تاريخ الأديان » : « إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين . بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنسانى في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية » .

* * *

# دلالة الكون

كما أن الفطرة البشرية السليمة إذا تُركت ونفسها بدون مؤثر ، اهتدت إلى وجود الله - سبحانه - فإن العقل السليم - بأدنى تأمل وتفكُّر مُجرَّد عن الهوى والتقليد والعصبية - ينتهي حتماً إلى نتيجة ناصعة هي : وجود الله عز وجل .

ومجال التفكر والتأمل للعقل هو هذا الكون الكبير بسماواته وأرضه ، بإنسانه وحيوانه ، ونباته وجماده ، بكل ما فيه من الذَّرة إلى المجرَّة ، من الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة . والمتأمل في هذا الكون - بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى ، هذه الأدلة هي : الخلق ، والتسوية ، والتقدير ، والهداية .

## • عناية القرآن بالكون

إن كل شيء في هذا الكون الكبير - إذا تأمله الناس حق التأمل - يأخذ بيدهم إلى الله ، ويدلهم على وجوده ، بل

على وحدانيته وتفرده بالملك والتدبير ، كما يدلهم على أسمائه الحُسنى ، وصفاته العليا .

الإنسان نفسه آية فريدة ، دالة على الله ، فهو وحده عالم خاص ، اجتمع له من حسن الصورة ، ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره .

ولهذا يوجِّه القرآن الإنسان إلى النظر والتفكر في نفسه وفيما يحيط به من عوالم ، موقناً أن هذا النظر والتفكر جدير بأن يهديه إلى الحق ، ويسوقه إلى الخير ، بما يرى ويلمس من آيات الله في الأنفس والآفاق .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥)؟ .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الروم: ٨).

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٦-٨). ويعرض القرآن كثيراً من مظاهر الكون في الأرض أو في السماء. ثم يُعقِّب على ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١١) أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢) أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٣)

وينكر القرآن على الكافرين أنهم قد أوصدوا عقولهم ومشاعرهم، فلا ينتفعون بآيات الله ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٥)، وكثيراً ما يختم الآيات بمثل هذه الفواصل:

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام:٣٢)؟ ، ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (السجدة:٢٦)؟ ، ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة:٢٧)؟ .

ومما ذكرنا نعرف : لماذا يقسم القرآن كثيراً ببعض خلائق هذا الكون ومظاهره . إنه يريد أن ينبِّه عليها القلوب الغافلة ، ويَلْفِت إليها العقول المعرضة . . ولهذا أقسم باللَّيل والنهار ، والفجر والضُّحى ، والشمس والقمر ، والنجم والبحر ، والسماء والأرض ، والشفع والوتر ، وما نُبصر وما لا نُبصر .

## • الأدلة الكونية الأربعة

والمتأمل في هذا الكون بما فيه الإنسان ـ يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى . . هذه الأدلة هي : الخلق . . والتسوية . . والتقدير . . والهداية .

## • دليل الخلق

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث ، أي إبراز الشيء من العدم إلى الوجود . وذلك مثل : خلق الحياة في الكائنات الحية على ظهر الأرض التي بَثَّ فيها من كل دابة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج . ومثل خلق الإنسان العاقل

الذي لم يكن شيئاً مذكورا ثم كان . وهو ما نبَّه عليه القرآن في أول سورة أُنزلت على رسول الله : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (العلق: ١، ٢). ومثل خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الناس ، وقد دلَّنا علم الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية ، وسعة المسافات بينها ، حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية .

تُرى . . مَنْ خالق الحياة على هذه الأرض ؟ ومَنْ خالق هذا الإنسان العاقل المفكر ؟ . ومَنْ خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه ؟ هل وُجِدت الحياة ، ووُجد الإنسان ، ووجِدت المخلوقات العُلوية والسفلية وحدها بلا مُوجِدٍ ؟ أم لا بد لها من خالق أوجدها ؟ ومَنْ هو ؟

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب ؟

إن ظهور الحياة ـ المادة الصمَّاء ـ وضع الماديين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلاً ولا تفسيراً إلا على نحو ما قال الشاعر :

وبات يقدح طول الليل فكرته　　　وفسَّر الماء بعد الجهد بالماء

من ذلك ما قال بعضهم : إن الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العُلوي عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في الفضاء . ولكن السؤال يبقى : ومن خَلَقَ الحياة هناك في عالم الأفلاك ، أو في أي كوكب من الكواكب ؟

وقال بعضهم : إن المادة فيها طبيعة الحياة ، بعد تركيب وتناسق خاص . ولكن السؤال يبقى أيضاً : ومن ركبها ونسَّقها وهي مادة عمياء صمَّاء ؟

« ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين : فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها ، فلا حاجة بها إلى خالق مريد».

« وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد ».

« فإذا كان العالم كله مادة ولا شيء غير المادة ، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية ، لا أول لها ولا آخر ، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها ، وجملة خصائصها ، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت ، بدون تفرقة بين المادة في هذا الكون من الفضاء ، والمادة في غير هذا المكان .

« ولا معنى إذن لظهور الحياة في كوكب دون كوكب ، وفي زمان دون زمان ، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة

بلا عمل ملايين من السنين ، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين ، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يحسب تاريخه بالآلاف ولا يقاس إلى الأزل الذي لا يدخل في حساب . فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء ؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان ؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة ، ثم دامت هذه المصادفة ، بكل ما يلزم لها من تدبير ، وليس للمادة الصمّاء تدبير »؟

« على العقل أن يبدى أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد . ولا نعرف أسبابا لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير ».

« والفرض اليسير هو الفرض الآخر ، وهو أن الحياة ظهرت من صنع خالق مريد»[1].

إن هذا الفرض اليسير هو الذي يحل لغز ظهور الحياة من المادة الصماء ، أو بعبارة أخرى خروج الحي من الميت ، ويحل لغز الوجود كله ، حين يستجيب المرء إلى

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد .

صوت البداهة والعقل، ويرد الخلق والأمر كله إلى الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥).

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦).

هذا الدليل يسمى دليل «الخلق» أو دليل «الإبداع» أو «الاختراع».

وقد يوجد في صورة أُخرى فيسمى دليل «الحركة» سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، أم الانتقال من حال إلى حال، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الوجود.

وفحوى هذا الدليل: أن كل متحرك لا بد له من محرِّك، وأن هذا المحرِّك لا بد أن يستمد الحركة من غيره. وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرِّك أزلي قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره، وإلا لزم الدور أو التسلسل إلى ما لا نهاية، وكلاهما باطل، وذلك المحرِّك هو الله.

وقد عرضه المتكلمون في صورة ثالثة وسموه دليل «الحدوث».

قالوا : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث . ولا بد أن يقف العقل عند محدث غير حادث ، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان . وذلك المحدث هو الله . والعلم الحديث يقر بحدوث العالم ، ويرجع حدوثه إلى ملايين يقدِّرها من السنين .

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون ـ كالفارابي وابن سينا ـ في أسلوب آخر وسمُّوه « دليل الإمكان » .

وفحوى هذا الدليل : أن الموجودات ـ حسب القسمة العقلية ـ إما أن تكون واجبة الوجود جميعاً ـ وواجب الوجود هو الذي لا يتصور العقل عدمه ، لاستلزام المحال ـ وإما أن تكون ممكنة الوجود على معنى أنها يمكن أن توجد وألا توجد ، فليس هناك علة لذاتها تقتضي وجودها أو عدمه ، وإما أن يكون بعضها واجباً وبعضها ممكناً .

ومحال أن تكون كلها واجبة الوجود ، لأنها بين متحركة تحتاج إلى محرِّك ، وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركيبها ، ولا بد أن تسبقها أجزاؤها .

ومحال أن تكون كلها ممكنة الوجود ، لأن الممكن يحتاج إلى علة تخرجه من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الفعل .

بقي الفرض الثالث : وهو أن يكون بعضها ممكن الوجود وهو هذا العالم ، وبعضها واجب الوجود وهو الله ، وهو السبب الأول لوجود هذا العالَم . ومن المحال أن يكون مسبوقاً ، لأن الذي يسبقه يكون أولى بالوجوب .

## • دليل التسوية

وإذا كان الخَلق يدل على الله ، فالتسوية أدل عليه ، والتسوية أخص من الخَلق ، إذ من الممكن أن يُخلق الشيء غير مسوى .

فمعنى تسوية الشيء : إحسان خَلقه ، وإكمال صنعته ، بحيث يكون مهيَّأً لأداء وظيفته ، وبلوغ كماله المقدَّر لنوعه ، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه ، وجعله مستوياً معتدلاً ، متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل بالمقصود منها .

والقرآن يعبِّر عن هذه التسوية بعبارات مختلفة الألفاظ ، متقاربة الدلالة على المقصود، مثل الإحسان في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة:٧)، والإتقان في

قــولــه : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل:٨٨)، وإعطاء كل شيء خلقه في قوله تعالى على لسان موسـى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه:٥٠)، ومعنـى إعطائـه خلقـه : إعطاؤه مـن الخَلـق والتصـويـر ما يصلح به لما خُلِقَ له .

كما عبَّر عن هذه التسوية بنفي التفاوت في خَلق الله في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾ (الملك:٣)

وهـذه التسـوية ظـاهرة في الكائنـات كلـها علـى وجـه العموم ، وفي الكائنات الحية علـى وجـه الخصـوص ، وفي الإنسان على وجه أخصّ .

(أ) فالأرض ـ مثلاً ـ قد سوَّاها صـانعها ، بحيـث تصـلح مهاداً ومستقراً لنوع الإنسان ـ فلهذا مدَّها وبسطها ، وجعلها ذلولاً ، ألقى فيها رواسي كالأوتاد لها حتى لا تميد ، وبارك فيهـا وقـدَّر فيهـا أقواتهـا ، فلـو كانـت قشـرة الأرض كلـها صخرية ، أو كلها يابسة ، أو كلـها محيطـات ، مـا صـلحت للإنبات وإخراج الثمرات .

ولو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة للنبات .

(ب) وكل ما على الأرض من كائنات حية ، قد سُوِّيت خلقته ، وأُحكمت صنعته ، بحيث يؤدي وظيفته في يسر وسهولة .

فالجمل ـ مثلاً ـ قد أعطي الصورة الخَلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء ، فلهذا خُلق برقبة طويلة ، تُعلي رأسه ، وتنأى بعينيه عن غبار الرمَالَ ، كما مُنحَ شفّةً مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه ، وأُعطي سَناماً يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوماً في الصحاري القاحلة ، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير ، بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها ، ولهذا سمُّوه « سفينة الصحراء ». وهكذا نجد أثر التسوية في كل الأحياء .

فكل حي أُعطي الوسائل التي يحصل بها على غذائه الملائم ، وأُعطي الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام .

فالحيوانات المفترسة أُعطيت من الأنياب والمخالب ما تتمكن به من الافتراس ، كما كُوِّن جهازها الهضمي بحيث يهضم اللَّحم النيء .

والأنعام التي تأكل العُشب أُعطيت كرشاً كبيراً يُعد بمثابة « مخزن » لما تلتهمه بسرعة ، إلى أن تجترَّ وتُعيد مضغه مرة أُخرى .

والطيور أُعطيت مناقير تساعدها على التقاط غذائها ، واتخذ المنقار صورة من الطول أو القِصَر أو الاستدارة أو غيرها ، مما يناسب نوع الغذاء الذي يلائمه .

كما زُوِّدَت الكائنات الحية جميعها بأسلحة مناسبة تدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها . فالناب سلاح ، والمخْلب سلاح ، والقرن سلاح ، والسُّم سلاح ، والمنقار المدبَّب سلاح ، والزعانف الحادة سلاح ، وسرعة العدو سلاح ، والقدرة على الطيران سلاح ، والقدرة على الاختفاء سلاح ، ولولا هذه الأسلحة التي زُوِّدَت بها تلك الأحياء ، لأفنى قويّها ضعيفها وأباد كبيرها صغيرها .

(جـ) تسوية الإنسان : وحين ندع الطبيعة وندع الحيوانات وما سُوِّيَت له ، ونرتقي إلى الانسان ، نجد مظاهر التسوية وأماراتها أوضح وأعظم ، فقد خُلِقَ الإنسان في أحسن تقويم . إن الإنسان قد خُلِقَ لمهمة جليلة وهي السيادة على الأرض والخلافة فيها . ولهذا أُعطي من الخصائص والمميزات ، والأجهزة المادية والروحية ، ما يُعينه على أداء وظيفته وييسر له سبيل مهمته .

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التسوية ، ودقة التصميم ، وتناسق الأجهزة المختلفة التي لا يُعد شيئاً بجانبها تصميم أي جهاز يخترعه إنسان منا ، فتُدهش له العقول ، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام .

الجهاز العضلي ، والجهاز العظمي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . والجهاز التنفسي . والجهاز التناسلي . والجهاز اللّمفاوي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر . كل منها آية من الآيات تسجد لها العقول ، وتخشع لها لقلوب .

تقـول مجلـة العلـوم الإنجليزيـة : « إن يـد الإنسـان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذَّة وإنه مـن الصـعب جـداً ـ بـل من المستحيل ـ أن تُبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تُثبته في الوضع الملائم للقراءة ، وهـذه اليد هي التي تُصحح وضعه تلقائياً . وحينما تُقلِّب إحدى صفحاته تضع أصبعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من مِلعقة ، إلى سكين ، إلى آلة الكتابة ، وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان . واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة ، وتسع عشرة مجموعة من العضلات ، لكل منها »[1].

« وإن جزءاً من أُذن الإنسان ـ الأُذن الوسطى ـ هو سلسلة من نحو أربعة آلاف (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، في الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه

---

(١) عن كتاب « الله والعلم الحديث ».

الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها مُعَدَّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر . فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة »[١].

« ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً والذي تعتبر حركته الإرادية ، الذي يمنع عنها الأتربة والذرَّات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذي يُعرف باسم الدموع فهو أقوى مُطَهِّر »[٢].

« وجهاز الذوق في الإنسان هو اللِّسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات

---

(١) عن كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» الفصل الثامن «غرائز الحيوانات».

(٢) عن كتاب « الله والعلم الحديث».

غشائه المخاطي . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة ، فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ، ويغذي الحلمات فروع من العصب اللِّسانى البلعومى ، والعصب الذَوقي ، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذَوّاقة ، فينتقل الأثر إلى المخ . وهذا الجهاز موجود في أول الفم ، حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة والبرودة والسخونة والحامض والمالح ، واللاذع ونحوه . ويحتوي اللِّسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب ؟ وما حجمها ؟ . وكيف تعمل منفردة ، وتتجمع بالإحساس عند المخ »؟[1] .

« ويتكون الجهاز العصبي ـ الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة ـ من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم . . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة ، بالجو المحيط ، نقلت

---

(١) عن كتاب « الله والعلم الحديث » .

الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية »[1] .

« ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي ، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل ، فإننا ندرك تَوًّا أنه عملية عجيبة ، إذ تهضم تقريباً كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها » .

« فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعاً من الطعام كمادة غفل دون أي مراعاة للمعمل نفسه ، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له . فنحن نأكل شرائح اللحم والكرنب ، والحنطة والسمك المقلي . وندفعها بأي قدر من الماء » .

« ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة ، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاءً لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل

---

(١) عن كتاب « الله والعلم الحديث » .

المواد الأخرى الضرورية ، وتعني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية ، وبإمكان إنتاج الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع ، وتفعل ذلك بالرغم من تفكير الإنسان وتعليله . إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي ، بصرف النظر كلية تقريباً عما نتناوله . معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية - أوتوماتيكية - لإبقائنا على الحياة . حين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد ، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا ، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض ، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً ، وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة ، لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة».

« فههنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان . وههنا نظام للتوريد

أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام»[1].

«ومنذ الطفولة إلى سن الخمسين مثلاً لا يُخطئ هذا المعمل خطأً ذا بال، مع أن المواد نفسها التي يعالجها يمكن أن تكون بالفعل أكثر من مليون نوع من الجزئيات، وكثير منها سام».

يقول الأستاذ «أ. ك. موريسون»: «إن شرح العمل العجيب الذي يقوم به معمل المعدة، ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد ولا يمكن أن يحدث بأى حال، في غيبة الحياة. وكل ذلك يتم في نظام كامل، والنظام مضاد إطلاقاً للمصادفة، أليس ذلك من صنع الخالق»؟!

(د) على أن هناك شيئاً هو أجل من كل ما ذكرناه من مظاهر التسوية في خَلق الإنسان، ذلك هو العقل.

إن الإنسان لم يُمنح قوة عضلية كقوة الثور، ولا سرعة في العدو كسرعة الحصان، ولا صبراً على المشقة كصبر الجمل، ولا أجنحة يُحلِّق بها كأجنحة الطير، ولا أنياباً

---

(١) الله والعلم الحديث، وانظر: «العلم يدعو للإيمان» - «فصل أعظم معمل كيماوي في العالم» - يعني المعدة!

ومخالب كأنياب الأسد ، ولا أعيناً مكروسكوبية (مكبرة) كأعين الحشرات الدقيقة ، ولا بصراً تلسكوبياً (مقرباً مكبراً) كبصر الصقور ، ولا غرائز هادية كغرائز النحل والنمل والحمام الزاجل ونحوها .

ولكن الواقع أن الإنسان أُعطي ما هو أعظم مما أُعطيته هذه الأمم من الحيوان والطير مجتمعة . أُعطي العقل المفكر وأُعطي الروح المبصر .

لقد استطاع بعقله أن يستأنس الثور والحصان والجمل ، وغيرها من الدواب الضخمة في جثتها ، القوية في بدنها ، وأن يُسَخِّرها في حاجاته ومعيشته .

واستطاع أن يصنع لها عجلة تجرها ، فتضاعف قوتها وسرعتها ، وبهذا أطال الإنسان في سيقانها ، وقوّى من ظهورها .

واستطاع الإنسان بما اخترعه من أجهزة ميكانيكية أن يطوي المسافات الشاسعة في الزمن القليل ، وأن يضرب بين القارات حتى جعل العالم «قريته الكبرى»، وأن يجعل كل عمله اليدوي إدارة الأجهزة والسيطرة عليها .

استطاع أن يغوص في البحار كالحيتان ، وأن يَحَلِّق في الهواء كالطيور ، بل فاق الحيتان وسبق الطيور .

لقد تَحكَّم الإنسان في قوة الطبيعة ، ونسف الصخور ، وشق الأنهار ، واستخدم البخار والغاز والكهرباء ، وفَجَّرَ - أخيراً - الذَّرة ، وغزا الفضاء الفسيح ، وحاول الصعود إلى الكواكب ، وصنع هذا الشيء العجيب المدهش (الكمبيوتر).

إن الإنسان لم يُمنح عيناً مكروسكوبية (مكبرة) كأعين الحشرات الدقيقة ولا بصراً تلسكوبياً (مقرباً مكبراً) كبصر الصقر ، ولكنه استطاع بعقله أن يصنع « ميكروسكوباً » كهربائياً يرى به « بيكتريا » كانت غير مرئية ، بل يرى الكائنات الصغيرة التي تعضها .

واستطاع بتلسكوبه أن يبصر « سديماً » بلغ من الدِّقة والصغر أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة أبصاره مليوني مرة ليراه .

ولم يُمنح الإنسان حاسة فائقة للسْمع كما أُعطيته الحيوانات التي تسمع أصواتاً خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا . ولكنه استطاع بفضل وسائله أن يسمع ذبابة تطير على بُعد أميال ، كما لو كانت فوق طبلة أُذنه ، ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يُسجِّل وقع شعاع الشمس .

فهل يكون كل هذا العمل العجيب للعقل الإنساني ليس إلا نتيجة تفاعل في المادة التي يتكون منها الجسم - وقع بالمصادفة العمياء؟

## • دليل التقدير

التقدير : هو خلق كل شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب ، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه ، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه ، فلا يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها لما خُلقت له ، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ، ينتظم به سير الوجود كله .

فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخَلق والتصوير ما يؤدي به وظيفته على الوجه اللائق به ، فإن التقدير أن يكون بالقَدْر الذي ينفعه في نفسه ولا يضر غيره ، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى ، وذلك يتم إذا ما وُضِعَ في مكانه الملائم وزمانه المناسب ، وبالكم الذي يصلح ولا يفسد ، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه .

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء كما نبّه القرآن على هذه الحقيقة إذ قال : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨) ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)، ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق:٣)، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر:٢١)

الماء ـ مثلاً ـ سوّاه الله بمعنى أنه أحسن خَلقه ، وهيأه لأداء وظيفته من السقي والري والتطهير والتنظيف ، ونحو ذلك . ولكن الماء الذي خلقه الله وأسكنه في الأرض خلقه بِقَدَر ، وأنزله بِقَدَر ، بحيث لا يقل عن حاجة الخلق فيكون الجدب والقحط ، ولا يزيد عنها فيكون الغرق والضرر ، ولا تطغي المحيطات على اليابسة ، ولا الملح على العذب ، وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ (المؤمنون:١٨)

**الشمس** : أحسن الله خَلقها لتؤدي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية ، ولكنه خلقها بحيث

تجري إلى غايتها في مدار محدود ، لا تصطدم بكوكب آخر ، ولا تقترب من الأرض قرباً يحرق أحياءها ، ولا تبعد عنها بعداً يحرمها الحرارة اللازمة للحياة فيها . وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٣٨-٤٠)، وكل إنسان في أي عصر يستطيع بتأمله وإدراكه الفطري أن يشهد ـ على قدر حاله ـ أن كل شيء في الكون قد خُلِقَ بحساب ومقدار ، وجاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله ، فأماط اللِّثام عن الحكمة البالغة ، والأسرار العجيبة الكامنة وراء ما بين المخلوقات من مقادير وحدود ، وضوابط وموازنات .

إن في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدوداً ، ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجوازه ، وبعض هذى أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها ، كالشعرى الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها ضعف نور الشمس

بخمسين مرة ، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة . . وهكذا .

ويقول الفلكيون : « إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم،ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة . وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه.هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادى ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً إن لم يكن مستحيلاً » .

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخر ، فقد وُضِعَ كل نجم في مكانه بحيث يتسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، وتؤدي جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته .

ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينها من علاقات مثلا لهذا التقدير المحكم الدقيق الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم .

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم ، التي تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة ، وإن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها ودرجة بعده عنا ، كل ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا الذي هو الأرض .

يقول العلامة (أ . كريسي موريسون) : «تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة ، ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات ، ففي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي اللَّيل قد يتجمد كل نبت في الأرض».

« إن الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها ١٢٠٠ درجة فهرنهايت ، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفي أن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي ، لا بأكثر منه ، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب . وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها ».

« ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة فإن كل نبت يموت ، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجميداً ».

« والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل (١٨) ثمانية عشر ميلاً في الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً (٦) ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا ».

« والنجوم ـ كما نعلم ـ تختلف في الحجم ، وأحدها يبلغ من الضخامة حداً لو كان هو شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلاً في سطحه لمسافة ملايين الأميال ».

والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها ، وكثير من أشعتها يميت كل نوع معروف من أنواع الحياة . وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه ، بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا ، وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرة . ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط لكنَّا تجمدنا ، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رماداً ، من زمن بعيد ».

« ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة ».

« ويبعد القمر مسافة ٤٢٠,٠٠٠ ميل ، ويُذَكِّر المدُّ الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر ، والمدّ الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً في بعض الأماكن ، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج ، مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية ».

« والمريخ له قمر ، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال ، ولو كان قمرنا يبعد عنا ٥٠,٠٠٠ ميل مثلاً ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المدّ كان يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متلفق ، يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المدّ الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم »[1] .

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ـ الفصل الأول ـ « عالمنا الفذ » .

ترى من الذي وضع كل هذه المخلوقات في مواضعها الصحيحة ، قَدَّر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونسبها وعلاقاتها هذا التقدير المحكم العجيب ؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور ؟ كلا .

أما نحن فجوابنا : إنه «الله» الذي ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢) ، ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام:٩٦).

**الهواء** : ولو تركنا الكواكب والنجوم وعلاقتها بالأرض ونظرنا إلى الهواء : ذلك الغلاف الغازي الذي يُحيط بهذه الكرة لوجدنا العلم يقول :« إن هذا الهواء المكوَّن من الأوكسجين والنتروجين على الأخص ـ لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية . وكان يمكن أن تمتص الأرض في فترة تكوينها ـ وفق النظرية السائدة الآن ـ وكان يمكن أن يكون بنسبة أكبر كثيراً مما هو عليه . وفي كلتا الحالتين لم يكن وجود الإنسان على ظهر الأرض ممكناً».

«وسمك الهواء أو كثافته أمر مقصود مقدَّر أيضاً ، فلو كان أرق وأرفع كثيراً مما هو الآن ، لكانت بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة ، كان يمزقه إرباً إرباً ، من مجرد حرارة مروره .

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرَّض نفسه لها مدة أطول من اللازم»[١].

وإذا نظرنا إلى الغازات التي نتنسمها فسنجد الأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الكائنات الحيوانية فوق الأرض ، ومنها الإنسان ، ولا يستطاع الحصول على هذا الغاز إلا من الهواء ، وتحدد نسبة الأوكسجين في الهواء عادة بـ٢١٪ ، ولو زادت هذه النسبة إلى ٥٠٪ مثلاً أو أكثر ماذا كان

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ـ الفصل الثاني ـ «الهواء المحيط بنا».

يحدث ؟ . يقول العلم : إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة كلها حتى لتكاد تنفجر .

ومن المعلوم أن كل الكائنات الحيوانية تمتص الأوكسجين ، وتلفظ ثاني أوكسيد الكربون ، أما النبات فهو على العكس . يستعمل ثاني أوكسيد الكربون ويلفظ الأوكسجين . فهناك تبادل مشترك بين الإنسان والحيوان من جانب ، وبين جميع النباتات والغابات من جانب آخر . فما نطرده نحن تنتفع به هي ، وما تطلقه هي نتنسمه نحن ، وبدونه تنتهي حياتنا بعد خمس دقائق .

فلو لم تكن هذه المقايضة قائمة ما استمرت الحياة إلى اليوم .

فلو كانت الحياة كلها حيوانية ، لكانت الآن قد استنفدت كل الأوكسجين .

ولو كانت الحياة كلها نباتية ، لكانت قد استهلكت كل ثاني أوكسيد الكربون .

وفي كلتا الحالتين ، قد تنتهي هـذه الحيـاة وتلـك . فإنـه متـى انقلـب التـوازن تمامـاً ذوي النبـات أو مـات الإنسـان فيلحق به الآخر وشيكاً [1].

تُرى من الذي قـدَّر هـذا التناسـق ، وأقـام هـذا التـوازن ، ووضع هذا النظام المحكم ؟

فـإذا تركنـا عـالَم الغـازات ، ونزلنـا إلى عـالَم النبـات والحشرات ، رأينا مظاهر شتى لهذا التوازن والتقدير . ومـن هذه المظاهر ما ذكره العلامـة (أ . كريسـي موريسـون) في فصل « ضوابط وموازين » من كتابه . قال « ما أعجـب نظـام الضوابط والموازنات ، الذي منع أي حيوان ـ مهما يكن مـن وحشيته ، أو ضخامته ، أو مكره ـ من السيطرة على العـالم منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة ».

« غـير أن الإنسـان وحـده قـد قلـب هـذا التـوازن الـذي للطبيعة ، بنقله النباتات والحيوانـات مـن مكـان إلى آخـر ، وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك ، مـاثلاً في تطـور آفات الحيوان والحشرات والنبات ، والواقعة الآتية فيها مثـل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان ».

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان ـ الفصل الثالث ـ « الغازات التي نتنفسها ».

« فمنذ سنوات عديدة زُرِعَ نوع من الصبَّار في أستراليا ، كسياج وقائي ، ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا ، وزاحم أهالي المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة ، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار ، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت ، يتقدم في سبيله دون عائق ».

« وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم ، حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبَّار ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعرفها في أستراليا ».

« وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلَّبت على الصبَّار ، ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبَّار عن الانتشار إلى الأبد ».

« وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائما مجدية ».

« ولماذا تسيطر بعوضة « الملاريا » على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها أو يكسبون مناعة منها ؟ . ومثل

ذلك يقال عن بعوضة الحمى الصفراء ، التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك . . ولماذا لم تتطور ذبابة « تسي تسي » حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود »؟ .

« يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب . وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري ـ رغم ذلك ـ يدعو حقاً إلى الدهشة »[1].

ولو تركنا ذلك كله وذهبنا إلى الجسم الإنساني نتأمل في أعضائه وأجهزته وخلاياه ، وما بينها من تضامن وتعاون ، ومن تناسق وتوازن ، لأدركنا من دقة التقدير وإحكام التدبير ، ما لا ينقضي منه العجب . وحسبنا أن نعرف من هذه الأجهزة جهاز « الغُدد الصمَّاء » التي عاش الإنسان ألوف السنين وملايينها قبل أن يعرف وظائفها . فقد بيَّن العلم أنها معامل كيماوية صغيرة ، صغيرة في

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان فصل ـ « ضوابط وموازين ».

الجسم ، تمده بالتركيبات الكيماويـة الضـرورية لـه ضـرورة مطلقة ، وتؤثر في وجوه نشاطه ، والتي يبلغ مـن قوتهـا أن جزءاً من بليون منها تحـدث آثـاراً بعيـدة المـدى في جسم الإنسان . كما بيَّن العلم أنها مرتبة ، ينظِّم كل منها غيرهـا ، ويضبطه ويوازنه ، وأن إفراز غدة يكمل إفراز الأخرى .

يقول الأستاذ (أ.ك.موريسون) : «ومن المتفق عليـه : أنـه إذا اختل توازن هذه الإفرازات المعقَّدة تعقيداً مدهشاً ، فإنها تُحدث اختلالاً ذهنياً وجسمانياً بالغ الخطر .

لو عمَّت هذه الكارثة لاندثرت المدنية وانحطت البشـرية إلى حالة الحيوانات ، هذا إذا بقيت على قيد الحياة»[(١)] .

تُرى كيف تحقق كل هذا التقـدير ، وكيـف تم كـل هـذا التدبير ، إذا لم يكن هناك خالق أعلى يُقَدِّر فيُحسن التقدير ، ويُدبِّر فيُحكم التدبير ؟

● **دليل الهداية**

خلـق الأشـياء المبثوثـة في هـذا الكـون دليـل على الله ، وإحسان خلقها وتسويتها لتؤدي مـا خُلِقـت لـه دليـل آخـر

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان فصل ـ «ضوابط وموازين» .

على الله ، وخلق هذه الأشياء المسوّاة بمقدار وترتيب يُحقّق التوازن والتناسق بينها وبين غيرها دليل ثالث على الله .

وبقي هنا دليل رابع هو دليل « الهداية » . فكما أن كل شيء في الكون قد خُلِق على الصورة التي تناسب وظيفته ، وتعينه على أدائها ، فهو أيضاً قد هُدِيَ إلى ما خُلِقَ لأجله ، وأُلهم غاية وجوده ، ويُسِّر له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه . وهذه هي الهداية . إنها شيء فوق الخَلْق والتسوية والتقدير ، إنها الإلهام أو التعليم . سمه ماشئت . إنها الهداية التي يتم بها التقدير ، ويكمل الخَلْق والتدبير .

هذه الهداية عامة مبثوثة في كل شيء في الكون ، حى أو جامد ، صامت أو ناطق ، عاقل أو غير عاقل . فليست هى هداية خاصة بالمكلفين أو العقلاء ، كما قد يُظن لأول وهلة . وليست مقصورة على الكائنات المتحركة بالإرادة كالناس والدواب والطيور والحشرات ، وهذا ما ذكره القرآن على لسان موسى حين سأله فرعون : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٤٩)؟ ـ وقد كان يَدَّعي هو أنه الرب الأعلى ـ فقال موسى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ

هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠) فما من شيء في الوجود إلا أُعطي هداه، كما أُعطي خلقه.

(أ) ومن مظاهر هذه الهداية: أن كل حيوان أُعطي من الحواس والأجهزة الخاصة ما يُعينه على معيشته، وأداء وظيفته المنوطة به. فتجد طائراً كالصقر كأنما أُعطي بصراً تلسكوبيا، يستطيع أن يشاهد به - وهو مُحَلِّق في الجو - صيده الصغير على الأرض. ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيوناً مكروسكوبية لا ندري مبلغها من الإحكام. وتجد حاسة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسان، لأنه يُكَمِّل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة ونحوها، أما في طائر كالحمام الزاجل فإنه يقطع آلاف الأميال عائداً إلى وطنه بلا «بوصلة» ولا خارطة ولا دليل، فإذا التبس عليه الطريق حيناً، حوَّم برهة ثم يقصد قُدماً إلى موطنه دون أن يضل.

والنحلة تهتدى إلى خليِّتها، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يرى.

والطيور تهاجر من قُطر إلى قُطر، بل من قارة قارة، ثم تعود إلى مقرها الأول دون أن تخطئ.

ومن أعجب ما عُـرِف في هجـرات الحيـوان وهـدايتها : هجرة ثعابين الماء ، التي تهاجر ـ حين يكتمل نموها ـ من مختلف البرك والأنهار،وقد تقطع آلاف الأميال في المحيط، لتقصد كلها إلى الأعماق السحيقة جنـوبي برمـودا ، وهنـاك تبيض وتموت ، أما صغارها ـ تلك الـتي لا تملـك وسيلة لتعرف بها أى شىء سوى أنها في ميـاه قفـرة ـ فإنهـا تعـود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أُمهاتهـا ، ومن ثَمَّ إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صـغيرة . ولـذا يظـل كـل جسـم مـن المـاء آهـلاً بثعـابين البحـار ، لقـد قاومـت التيـارات القويـة ، وثبتـت للأمـداد والعواصـف ، وغالبـت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ ، ماضية في طريق لـيس لها به أدنى علم من قبل ، حتى تصـل إلى مياههـا الخاصـة بها ،ولم يحدث مرة أن صِيدَ ثعبان إفريقي في مياه آسيوية، أو أوربي في مياه أمريكية أو العكس .

إن المجـال ذو سـعة ، للحـديث عـن الهدايـة في عـالم الحشرات والطير والدواب حتى إن المرء ليقف متحيراً عـن

أي شيء منها يتحدث ؟ وما الذي يخصه منها بالحديث دون غيرها ؟

هل نتحدث هنا عن الهداية في مملكة النحل ، وكيف تُصمِّم وتُهندس ، وتبني وتُنسِّق ، وكيف توزِّع العمل وتتعاون على الإنتاج والحراسة ، مما يعلمه الدارسون ، وما أفاض فيه الكاتبون ؟ وحسبنا إشارة القرآن إلى هذه الهداية : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٦٨،٦٩).

أم نتحدث عن الهداية عند النمل : « تلك الحشرة الاجتماعية » التي يُضرب المثل بتعاونها وتضامنها ، والتي يبدو أنها تُطبِّق المبدأ القائل : « أعظم خير لأكبر عدد » أنها تَدَّخِر رزقها في الصيف ، وتحفظه في مخازن التموين في مستعمراتها ، حتى تنتفع به في أيام الشتاء ، حيث يتعذر

عليها الكسب والسعي والخروج من البيت . وإذ كان فيما خزنته ما ينبت عمدت إليه ففلقته فلقتين لئلا ينبت ، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربع ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد ، انتظرت به يوماً ذا شمس ، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ، ثم أعادته إليها . فمَنْ علَّمها هذا ، وهداها إليه ؟

ومن عجيب أمرها : أنها تدرك بالشم من البعد ما يدرك غيرها بالبصر أو بالسمع ، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله ، وإن كان أكبر من وزنها ، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها ، وجاءت معها بطائفة من أصحابها ، فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً ، حتى يتعاونوا على حمله ونقله . وليس للنمل ملك ولا رئيس كما للنحل إلا أن لها رائداً لا يكذبها ، يطلب الرزق في مظانه ، فإذا وقف عليه أخبر جماعته ، فخرجوا مجتمعين متعاونين كما ذكرنا ، وكل نملة تجتهد في صالح جماعتها ، غير مختلسة لنفسها من الحَب شيئاً .

أم نتحدث عن الهداية عند طير كالحمام، الذي نرى الذكر والأنثى فيه يقتسمان أمر الفراخ بالعدل، فتقع معظم الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، ومعظم جلب القوت والرزق (إطعام الفراخ في فمها) على الذكر، وأنهما ليتعاونان في إطعام فرخهما، ويتدرجان به من حَب لين رخو مخلوط بلعابهما إلى ما هو أشد منه وأقوى، حتى إذا علما أنه قد أطاق الالتقاط بنفسه، منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللَّقط ويعتاده، فإذا أدركا أن حوصلته قد اتسعت وقويت، وأن قوّته قد تمت، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوي على الاستقلال بأمره، تركاه يسعى ويكد في طلب رزقه وكفاية نفسه بنفسه، وإذا سألهما الرزق كما كان من قبل - منعاه وضرباه، ونُزعت تلك الرحمة العجيبة من قلبيهما، وبدءا يعملان من جديد لإنجاب آخر.

أم نتحدث عن الهداية عند سائر الحيوانات، وقد قال ابن القيم [1]: «إن هداية الحيوانات إلى مصالح معاشاها كالبحر حدّث عنه ولا حرج». وفيها يقول:

---

(١) في كتابه «شفاء العليل - في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

« من هدى الأُنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذَّر والنمل ، لأنها تضعه كقطعة من لحم ، فهى تخاف عليه الذَّر والنمل ، فلا تزال ترفعه وتضعه ، وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد ؟

ومن عَلَّمَ الأسد إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثره ويُطلب عفى على أثر مشيته بذنبه ؟

ومن عَلَّم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقى على ظهره ، ويحتبس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ ، فتظن الطير أنه ميت فتقع عليه ، فيثب على من انقضى عمره منها؟

ومن علَّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف ، فيأخذ منه ، ويضعه على جرحه كالمرهم ؟

ومن علَّم الأُنثى من الفيل إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه ، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة ، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان ، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق ، فتأتي ماءً وسطاً وتضعه فيه ، يكون كالفراش اللَّين والوطاء الناعم ؟

ومن علَّم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ، ويُحرِّكونه بأفعالهم، ويحدثون له قوة وهمية وحركة حتى يطير معهم؟

ومن علَّم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن يُقيما له حروفاً تشبه الحائط، ثم يُسَخِّناه ويُحدثا فيه طبيعة أُخرى ثم يُقَلِّبان البيض في الأيام حتى يفرخ؟

ومن علَّم المرسلة منها ـ الحمام الزاجل ـ إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت، وإذا عرفت الطريق مرَّت كالريح؟

ومن علَّم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلَّت إليها فاصطادتها؟

ومن علَّم الظبي ألا يدخل كُناسه إلا مستدبراً، ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه؟

ومن علَّم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمُشير إليها بالعودة ، ثم يشير إليها بالرجوع ، وإنما يريد أن يدُهشها ، فتنزلق فتسقط ؟

ومن علَّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي ، حيث يرتفع عن مجرى السيل ، ليسلم من مدق الحافر ، ومجرى الماء ، ويُعمِّقه ، ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة ، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً ، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه ، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه ؟

قال العلامة ابن القيم ، بعد أن أطال في هداية الحيوان : وهذا باب واسع جداً ، ويكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(الأنعام:٣٨)

ويكفينا هنا أن نسأل الماديين : كيف أُتيح للذَّرات التي تتكون منها النحلة أو النملة أو الحمامة أو غيرها أن تهتدي إلى تلك العمليات المعقَّدة دون خالق يُرشدها ؟!

غير أن الذي ينبغي ذكره هنا هو بعض ما أمدَّنا به العلم الحديث من معرفة اتسع بها مدلول الهداية لأكثر مما التفت إليه ، وعنى به علماؤنا المتقدمون من هداية الحيوانات إلى مصالحها ومعيشتها ، ومابه بقاؤها وتكاثرها - وبهذه السعة في معنى الهداية . استبنا في ضوء العلم سر التعميم المطلق في قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠) .

(ب) ولن نتحدث هنا عن عجائب الهداية في عالم النبات ، وكيف يمتص كل نوع منه ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة ، رغم اتحاد التربة واختلاط العناصر فيها . فإذا هذا ملح ، وهذا حلو ، وهذا حامض ، وهذا مُزّ ، وهذا مُرّ ، وهذا بين بين . ترى الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة ، التراب واحد ، والماء واحد ، والهواء واحد ، والإضاءة واحدة ،

والإشراف واحد ، ولكن شجرة منها لا تخطئ يوماً فتأخذ ما ليس من مخصصاتها أو فوق ما ينبغي ، أو دون ما ينبغي . وهى الحقيقة التي سجلها القرآن المعجز فقال :

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤).

(جـ) إنما الذي نتحدث عنه هنا ، ونلفت النظر إليه هو ما اهتدى إليه العلم من تكوين خلايا الحياة في الجسم الحي وعملها وتضامنها ، وكيف تهتدي إلى طريقها وتصيب هدفها ، ولا تخطئه ضمن ملايين الاحتمالات .

إن كل فرد منا أمة بل أمم منتظمة من ملايين ، بل بلايين من الخلايا . وكل خلية مواطن صالح يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة للمجموع في أمانة وذكاء ومهارة .

وكل خلية من خلايا الحياة تحمل في تركيبها من الخصائص مالا تحمله خلية أخرى في عالم المادة جمعاء .

وأول هذه الخصائص قابليتها للتكرار والتنويع وتعويض النقص وحفظ النوع ، وتجديده على النحو الذي ينفرد به كل نوع من الأنواع. فكل خلية من الجسم تعمل ما ينبغي، على النحو الذي ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي أن تعمل فيه . إن كل خلية تؤدي عملها المنوط بها لصالح بنية الجسم ، في تعاون منقطع النظير مع سائر الخلايا ، التي تُقدَّر بعدد الجنس البشري كله على ظهر الأرض ، كأن كل خلية على علم بالخلايا الأخرى وما تطلبه منها ، ولا تضل واحدة منها طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفَّل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها .

ومايَنهدم وما ينحل كل يوم من هذه الخلايا نتيجة الجهد والعمل ، يذهب ويندفع إلى حيث ينبغي أن تندفع الأنقاض والأجزاء المنحلة ، ويتلقى الجسم العوض الذي يعيدها إلى الانتظام من جديد ، عن طريق الغذاء .

وإن العجب ليبلغ منا مداه إذا رجعنا بكل إنسان منا إلى نقطة البداية في تاريخه ، إلى النطفة . . إلى الخلية الأُولى

الساذجة ، الخلية الملقَّحة التي لا تكاد ترى بالمجهر ، والتي تحتوي الدفقة الواحدة منها أُلوف الألوف . لننظر ماذا يقول العلم في هذه الخلية الواحدة : كيف تمضي في إنشاء البناء الجسدي للإنسان ؟ وأى هداية منحتها هذه الخلية التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة ؟ إنها تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم ، في عملية بحث عن الغذاء ، حيث تزودها الهداية الإلهية بخاصة أكّالة ، تحول بها جدار الرحم حوله إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ، وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة ، عملية انقسام مستمرة ، تنشأ عنها خلايا ، وتعرف هذه الخلية الساذجة : ماذا هى فاعلة ، ماذا هى تريد . إنها تعرف الهدف وتعرف الطريق . إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه « العمارة » الهائلة : عمارة الجسم الإنسانى . فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي ، وهذه المجموعة

تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللِّمفاوي ، إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية .

ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . إن هنالك تخصصاً أدق ، فكل عظم من العظام ، وكل عضلة من العضلات ، وكل عصب من الأعصاب ، لا يشبه الآخر ، لأن العمارة دقيقة الصنع ، عجيبة التكوين ، متنوعة الوظائف ، ومن ثَمَّ تنتظم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة أن تتفرق طوائف متخصصة ، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصَّص لها من العمارة الكبيرة . إن كل خلية صغيرة ، تنطلق وهى تعرف طريقها . تعرف إلى أين هى ذاهبة ، وماذا هو مطلوب منها ، ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة ، فالخلايا المكلَّفة بأن تكون العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه ، ولا يجوز أبداً أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع ، مع أن كل موضع من هذه

المواضع ، يمكن أن تنمو فيه عين ، لو أخذت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين ، وزرعت في أى من هذه المواضع ، لصنعت عيناً هنالك . ولكنها هى بذاتها حين تنطلق ، لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنسانى المعقد فمن ترى قال لها : إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ؟ ويا ترى من ذا الذي رعاها ووجهها وهداها إلى طريقها في تلك المتاهة التي لا هادي فيها ولا دليل ؟

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة ، تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها ، وهي وحدات الوراثة (الجينات) الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين - وهى تنقسم وتتكاثر لكى تكون العين - تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين ، وخصائص محدودة ، تجعلها عين إنسان لا عين حيوان آخر ، وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . وأقل انحراف في تصميم هذه

العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص ، يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ، وعلّمها ذلك التعليم ؟ وهى الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا أدراكِ ، ولا إرادة لها ولا قوة ؟ ومن ذا الذي علّمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه ، لو وُكِّل إليه تصميم عين أو جزء من عين ، بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة ، تقوم ، بهذا العمل العظيم[1]؟

هل عند الماديين الجاحدين من جواب لهذا السؤال بل هذه الأسئلة ؟ هل عندهم من تفسير لهذه الظواهر ؟

إنهم لا يجدون جواباً ، ولا يعرفون تفسيراً ، ما داموا يفرون من الجواب الحتمي الذي لا جواب غيره ، والتفسير الضروري الذي لا تفسير سواه : وهو وجود الله .

## • والآن . . . ما موقف الماديين ؟

والآن بعد هذا العرض والإيضاح ، ما موقف الماديين المنكرين أمام دلالة الكون الصادقة وآياته الناطقة ؟

---

(١) انظر : تفسير سورة الطارق من (الظلال) للشهيد سيد قطب .

ما موقفهم أمام البرهان الكوني بشبعه الأربع ؟ أيجحدون الخلق في هذا العالم ؟ أم يجحدون التسوية والإحكام ؟ أم يجحدون التقدير والنظام ؟ أم يجحدون الهداية والإلهام ؟

إنهم إن جحدوا ذلك فقد أنكروا البداهة والحس والمشاهدة ، وأنكروا كل آثار العلم وتجاربه وملاحظاته .

أم تراهم يقرُّون بالخَلق والتسوية والتقدير والهداية ، ثم يقفون عند هذا الحد ؟ فأى منطق إذن يحتكمون إليه ، أو أى علم يستندون إليه ؟

أخلق ولا خالق ، وتسوية ولا مسو ، وتقدير ولا مقدِّر ، وهداية ولا هاد ؟!

أما العقل والعلم والبصيرة والمنطق ، فلا تملك إلا أن تتلو قول الله - جل شأنه : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:١-٣).

## • زعم المصادفة

سيقول الماديون المنكرون لوجود الله : إن وجود الخالق الذي يؤمن به المتدينون ، ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في

الكون من خَلْقٍ وتسوية ، وتقدير ، وهداية . إذ يمكن أن يكون كل هذا العالَم بما فيه من الحياة والعقل ، وما فيه من الإحكام والتناسق والتوازن الذي تحكمه سنن مطردة ، وقوانين في غاية الدِّقة ، إنما وجد بمحض المصادفة والاتفاق والاعتباط . وضربوا لذلك مثلاً : صندوقاً من الحروف الأبجدية يُعاد تنضيده مئات المرات وأُلوف المرات وملايين المرات ، على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون ، فلا مانع أن تُسفر هذه التنضيدات المتكررة في مرة من المرات عن مقالة جيدة أو قصيدة رائعة ، ولا عمل في إتقان حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة المحض .

وردنا على هؤلاء :

**أولاً** : إن القول بالصدفة والاعتباط ينافي البداهة والفطرة التي تؤمن بالسببية إيماناً أولياً لا يحتاج إلى تعلم أو تلقين . إن الذي أودع في ذات الإنسان ذلك الشعور القوي العميق بوجود الله ، الذي نسميه « الفطرة » أودع

كـذلك في عقلـه قانونـاً مطـرداً ثابتـاً يهـدي إليـه سـبحانه وتعـالى ، وهو ما يُعرف بقانون « السببية » أو « العلّية » .

ومعنى هذا القانون : أن العقـل البشـري ـ بـدون تلقيـن ولا تعليـم ـ يـوقن أن لكـل شـيء في الوجـود سـبباً ، وأن لكل معلول علّة ، ولكل فعـل فـاعلاً ، ولكـل أثـر مـؤثراً ، وأن شيئاً ما لا يصدر عن غير سبب .

حقيقة نلمسها في أنفسنا ، ونشـاهدها في أطفالنـا ، دون أن نُعلِّمهم إياها . ولهذا نرى الطفل كثير التساؤل عن سبب كل شيء من الجزئيات التي حوله ، ومن الأطفال من يرهق والديه بكثرة الأسئلة عن الأسباب ، وأسباب الأسـباب حتـى يقف عند سبب مقنع ، كل ذلك لأن العقـل الفطـري يـؤمن بالسببية في حدوث الأشياء ، ولا يـؤمن بـالوجود المعتـبط لها ، ولا بأنها تسير بالاحتمالات والصدفة والجزاف .

فـإذا أدرك عقـل الناشـئ الكـون كلـه كـوحـدة ، وجـاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات ، سأل السـؤال الأكـبر الـذي ما خُلِقَ إلا ليسأله ويجيب عليه وهو :من خلق هذا الكون؟

إن قانون « السببية » المركوز في فطرته هو الذي جعله يسأل هذا السؤال ، ولا يعتقد أن هذا الكون وجِدَ وحده ، بلا مُوْجِد ، فمَن المُوجِدِ الخالق ؟ إنه بالطبع ليس أنا ولا أنت ولا غيرنا من البشر ، لأننا أنفسنا مخلقون عاجزون محتاجون إلى خالق غير مخلوق ، قادر غير عاجز ، وذلك هو « الله » .

لا يمكن أن يُقال : أن الموجودات كلها ناقصة ، وإن الكمال يتحقق في الكون كله ، لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال ، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء ، ومجموع القصور قدرة لا يعتريها القصور . فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها ، ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه [١] .

وهذه النتيجة هى التي عبَّر عنها الأعرابي قديماً ، ببساطة وسذاجة حين سألوه عن « الله » كيف عرفه فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج - أفلا يدل ذلك على العلّى الكبير ؟ ! !

(١) انظر : الله ـ العقاد ـ صـ ١٤ .

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار العرب الذين نزل بلسانهم إلى ما حولهم من مخلوقات ، ليهتدوا بها إلى الإيمان بخالقها الواحد فقال : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠)

إن الإيمان بالله ضرورة عقلية ، لتفسير خلق هذا العالم ، وبدون الإيمان يظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن حائراً قلقاً بغير جواب : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(الطور:٣٥،٣٦)

وهم ـ بداهة ـ لم يُخْلَقوا من غير شيء ، وهم أيضاً لم يخْلِقوا أنفسهم . . ولم يدع أحد منهم ، ولا ممن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السموات والأرض ؟ فمن الخالق إذن ؟

ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد ، لا يملك الإنسان إذا ترِكَ ونفسه أن يجيب به . ذلك هو ما أجاب به الأعرابي

في باديته ، وما أجاب به المشركون أنفسهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦١)؟ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

وهو عين ما يُجيب به أقطاب العلم الحديث اليوم ، يقول أحدهم : « تثبت الغلوم بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أبدياً . ولا تقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية ، فقد أثبتت فوق أنه بدأ دفعة واحدة منذ ملايين السنين . واليوم لا بد لمن يؤمن بنتائج العلوم أن يؤمن بفكرة الخلق أيضاً . وليس من المعقول أن يكون هناك خلق بدون خالق ، هو الله »[1].

**وثانياً** : إن العلم الحديث قد أغلق ـ إلى الأبد ـ باب القول بأن هذا الكون أو شيئاً فيه قد وُجِدَ بالمصادفة ، فإن

---

(١) من مقال للعالم الأمريكي « إدوارد لوثر كسبل » في كتاب « الله يتجلى في عصر العالم ».

العلم الرياضي - الذي هو منظِّم حسابات العلم الحديث - قد بحث موضوع المصادفة على أساس رياضي ، وبيَّن بوضوح : أن احتمال وجود الكون أو شيء فيه بالمصادفة هو « الصفر الرياضي » الذي يعرفه الرياضيون أصغر من أصغر عدد يمكن تصوره أو تحديده .

إن المصادفة - وإن كانت تبدو لنا شاردة غير منتظمة فهي تخضع لقوانين صارمة تقيدها تقييداً وثيقاً .

ويضرب لذلك الأستاذ « أ.ك.موريسون » مثلاً يقول [1] :

خذ عشرة « بنسات » كلاً منها على حدة وضع عليها أرقاماً مسلسلة من (١) إلى (١٠) ثم ضعها في جيبك ، وهزها هزاً شديداً ، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من (١) إلى (١٠) .

« إن فرصة سحب البنس رقم (١) هى بنسبته إلى (١٠)، وفرصة سحب رقم (١) ورقم (٢) متتابعين هى بنسبة (١ إلى ١٠٠) وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١ ، ٢ ،

---

(١) الفصل الأول «عالمنا الفذ» من كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» صـ ٤٩ .

٣) متتالية ، هى بنسبة (١ إلى ١٠٠٠) ، وفرصة سحب (١، ٢، ٣، ٤) متتالية هى بنسبة (١إلى ١٠,٠٠٠) ، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من (١ إلى ١٠) هى بنسبة (١ إلى ١٠ ملايين)».

«والغرض من هذا المثل البسيط أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة».

وإذا كانت الأعداد تتكاثر بهذه الصورة ضد المصادفة في أول مرة ، فإنها تتكاثر وتتكاثر بما لا يتصور إذا أردنا تكرار التجربة مرات أخرى .

يقول العالم المذكور :

«لنفرض أن معك كيساً يحوى مائة قطعة رخام ، ٩٩ منها سوداء ، وواحدة بيضاء ، الآن هز الكيس ، وخذ منه واحدة . إن فرصة سحب القطعة البيضاء هى بنسبة (١ إلى ١٠٠)،والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس،وابدأ من جديد ، إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة . غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هى بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (١٠٠X١٠٠)» .

« والآن جرِّب مرة ثالثة : إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متتالية هي بنسبة (١٠٠X١٠,٠٠٠) أي واحد في المليون . ثم جرِّب مرة أُخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية »[1] .

وهذا المثل يدلنا بوضوح على أن ما يحدث بالمصادفة يصعب جداً أن يتكرر ، ويستحيل أن يستمر وقوعه فكل ما نراه من ظواهر طبيعية ، تتجدد باستمرار ، وتتكرر بانتظام ، وتمضي بلا خلل ولا اضطراب يستحيل أن يقع هكذا بالمصادفة العمياء ، وحين تكون الحقائق هكذا ناطقة ، وحين تعترف بخواص عقولنا يكون من الخبل والسفه أن نرد الحياة والنظام والتقدير في العالم إلى صدفة موهومة ، ونغفل كل منطق وكل برهان .

وبهذا نعلم أن صندوق الحروف ـ الذي ضربه بعض الماديين مثلاً لعمل الصدفة ـ هو وهم من الأوهام ، وهو ـ بمقتضى المنطق الرياضي المذكور ـ يستحيل أن يحدث ،

---

(١) الفصل السادس عشر « المصادفة » من كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » صـ ١٩١ .

ولو فُرِضَ حدوثه فيستحيل أن يتكرر وأن يثبت ، فضلاً عما في هذا المثل نفسه من خلل ينقض دعوى قائليه ، ويستلزم فرضاً غير فروض المصادفات ، كما يقول الأستاذ العقاد :

(أ) فقد فاتهم أنهم قدَّموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللَّفظ ، وينشأ منها الكلام المفهوم . . فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماسكة ، ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية ؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء ؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم ؟ .

(ب) وفاتهم كذلك : أنهم قدَّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنفيذ ، وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف .

(جـ) وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة : أنها تُعيد تنسيق الحروف على كل احتمال ، كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات .

(د) وفاتهم - عدا ما تقدم - أن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة ، لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها. .[1] .

## ● دلالة الأخلاق

ومن دلائل وجود الله . ما اعتمد عليه الفيلسوف الألماني الكبير «عمانويل كانت» وهو دلالة الوازع الأخلاقي المركوز في النفس الإنسانية .

وجوهر هذا الدليل - بعد تنقيته من الحواشي والزوائد والشوائب : أن الكون بما فيه من خَلْقٍ وتسوية ، وما فيه من تقدير وهداية ، يدل على وجود «الصانع القادر» ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه «الإله» الذي يصدر منه الخير والنِعَم ، وتتجه إليه القلوب بالعبادة والحب والحمد العظيم .

وإنما يثبت وجود هذا «الإله» بدلالة وعلامة في النفس الإنسانية ، لا يتأتي وجودها فيها بغير وجود إله . وتلك هي دلالة الوازع الأخلاقي أو دلالة الواجب أو دلالة الضمير .

---

(١) من كتاب «الله» للأستاذ العقاد صـ ٢١٦ .

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه، إن لم يكن في الكون قسطاس للحق، يغرس في نفسه هذا الوجوب؟ ومن أين تقرَّر في فطرة الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبَّب إليه، وإن لم يطَّلع أحد على دخيلة سره؟

إن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل على أن هناك غارساً غرسه فيها ليستقيم سير الحياة، وينتظم أمر الجماعة، وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال.

ويشير القرآن إلى هذا الدليل فيقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (الشمس:٧،٨) وإلهام التقوى للنفس يعني منحها الوازع الخُلقي الذي يقاوم دواعي الشهوة والفجور.

ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب، إنما هي «عادة اجتماعية» رسخت في النفس بمضي الزمن، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب. وينسى هؤلاء أن «العادة الاجتماعية» ليست بالتفسير الذي يعلِّل نشأة

الأخلاق ، وإنما هى تكرير للمشاهدة ، كما رأيناها ، فإذا سألهم سائل : لِمَ نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا للمصلحة الاجتماعية . ولكنهم لا يسألون أنفسهم : لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمراً مفروغاً منه ، مقضياً بوقوعه [1]؟

إن ترجيح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية ، هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذي أنكروه .

## ● دلالة الوحى

ومن أدلة وجود الله سبحانه : ما جاء به رسل الله المتتابعون من عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ، فكلهم دعوا أقوامهم إلى الله وإلى توحيده وحسن الصلة به ، وحذَّروهم من الشرك به أو الإعراض عنه .

وقام بينهم وبين أقوامهم صراع عنيف مرير ، ليس لأن هؤلاء الأقوام ينكرون الله ، بل لأنهم ينكرون أن هؤلاء بأعيانهم قد خُصُّوا بإرسال الله إياهم ، فأيَّد الله رسله بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات التي أثبتت صدقهم

(١) انظر «الله» للعقاد ، صـ ٢٣١ ، ٢٣٢ .

وقطعت ألسنة معارضيهم ، فآمن منهم من ينشدون الحق ، وكفر المعاندون والمستكبرون ظلماً وعلواً .

ومن أظهر هذه الآيات : أن هؤلاء الرسل - برغم ضعفهم وقلة أعوانهم وقوة خصومهم وكثرتهم - قد نصرهم الله ، وخلد في الناس ذكرهم ، وأهلك عدوهم ، ومكن لأتباعهم في الأرض ، وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين .

وبقي من آيات الرسل آية لا ينال منها تعاقب الليل والنهار ، ولا تبلى جدتها ، بل تزداد على مر الأعوام والأعصار ، وتلك هي الكتاب المحفوظ الخالد ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « القرآن الكريم ».

إن هذا الكتاب المعجز ليس آية ودليلاً على نبوة محمد ﷺ فحسب ، بل هو آية ودليل على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى واسع علمه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته . وكلما تقدم العلم ، واتسعت معارف البشر ، اكتشف العالمون في هذا القرآن من الأسرار والكنوز ما يزيل شك الشاكين ، ويزيد الذين آمنوا إيماناً ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

إن الرسـالات السـماوية آيـة مـن آيـات وجـود الله تعـالى وحدانيته وكماله ، فإن من رحمة الله أنه لم يكتف بما أودعـه في الفِطَر والعقول ، وفي الأنفـس والآفـاق مـن شـواهد تهـدي إليه وتدل عليه ، بل أرسل رسله بالبيِّنـات ، ليهـدوا النـاس إلى صراط العزيـز الحميـد . ولـيس ممـا يقبلـه العقـل السـليم أن يكون هؤلاء الرسل الكرام في مختلف الأُمم ، وشتَّى العصـور ، قد تواطئوا على أنهم مبعوثون لإله لا وجود له .

ولو فُرِضَ هذا ـ وفرض المسـتحيل جـائز كمـا يُقـال ـ فمَن الذي أيـدهم ونصـرهم وهـم الفقـراء مـالاً ، الضـعفاء جاهاً ، القليلون أعواناً ؟ ومَـن الـذي خـرق لهـم العـادات ، وأمدهم بآيات معجزات ، آخرها وأعظمهـا وأخلـدها هـو القرآن العظيم ؟

ومن الذي أنزل هذا الكتاب ، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل ؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١)

* * *

# دلالة التاريخ

وفوق دلالة الفطرة ، ودلالـة الكـون ، ودلالـة الأخـلاق ، ودلالة الوحى ، هناك دلالة التاريخ .

فالذي يستقرئ التاريخ منذ عرف الإنسان تاريخاً - يرى أن الجماعات البشرية في جميع الأقاليم حارة وباردة ، ومن مختلـف الأجنـاس والألـوان ، بيضـاء وسـوداء ، وفي شتَّى المستويات بـداة ومتحضـرين ، ومـن كـل الطبقـات أغنيـاء وفقراء ، وفي جميع العصور قـديمها ووسيطها وحـديثها ، هؤلاء الجماعات المتفرقة عرفوا الإيمان بالله ، على صـورة من الصور ، وقد ذكرنا كلمـة المـؤرخ «بلوتـارك» : إنـه لم توجـد أبـداً طـوال أزمنـة التـاريخ مدينـة بـلا معابـد ، وإن وُجِدت مدن بـلا قـلاع أو حصـون ، أو قصـور أو غيرهـا . كما ذكرنا كلمة الفيلسوف الفرنسـي «برجسـون» : إنـه قـد وجدت وتوجـد جماعـات إنسـانية مـن غـير علـوم وفنـون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة .

أجل ، لقد اعتقدت كل تلك الجماعات البشرية بوجود إله يستحق العبادة والتعظيم ، وكان لهذه العقيدة أثرها في حياتهم وسلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم . فهل أجمع النوع الإنساني في سائر أجياله على غير حقيقة ؟

إن الذي يحترم نوع الإنسان ، ويحترم نتائج التاريخ ، ويحترم عقله هو ، لا بد أن يُسَلِّم بأن هذا الإجماع التاريخي دليل يؤكد تلك الحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله سبحانه .

وانحراف بعض الناس أو أكثرهم في تصور الألوهية لا ينفي تلك الحقيقة بل يؤكدها ، فإن هؤلاء من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها ، وخلعوا كثيراً من صفاتها على المخلوقات التي اعتبروها مظهراً لتجلِّي الإله ، أو رمزاً له ، أو توهموها من نسله أو نحو ذلك من الأوهام! ولهذا كانت مهمة الأنبياء تقويم هذا الانحراف ، وتصحيح الإيمان ، وتخليصه من شوائب الوثنية وخرافاتها .

ولا عجب أن يحثنا القرآن على السير في الأرض ، والنظر في تاريخ الغابرين ، والاعتبار بمصارع المكذِّبين ،

والتأمل في آثارهم بعقول بصيرة ، وقلوب مفتوحة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾ (محمد: ١٠)، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١)، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

الحق أن تجارب التاريخ ـ كتجارب الواقع أيضاً ـ كلها تنطق وتشهد بأصالة الإيمان بوجود الله تعالى ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ، ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ، ليستقر ويتماسك ويرقى . يقول الأستاذ العقاد :

« إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم ، أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه ، في علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه ».

«ويقرر لنا التاريخ : أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأُخرى في حركات الأُمم ، فإنما تتفاوت فيه القوة لمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة».

«هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام».

«أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى في القِدَم ، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى ، وغايتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور».

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين ، أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التي لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن مكين ».

« وكذلك تُلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير ، مضطرب الشعور يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه ».

« فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها ، وشجرة مجتثة من أُصولها ».

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطل الضمير ، على شيء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطيل والحيرة »[1].

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ١٥،١٦ .

# الحجب التي تحول بين الناس وبين الله

لعل سائلاً يسأل فيقول :

إذا كانت الدلائل على وجود الله بهذا الوضوح ، وهذه القوة ، وهذه الكثرة ، فما لنا نرى بعض الناس يجحدون بالله ولا يؤمنون به ؟ ويقولون : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤).

والجواب : إن هناك حُجباً كثيفة تحول بين بعض البشر ، وبين معرفة الله ، والإيمان به . وهذه الحُجب مما كسبت أيدي الناس ، لا من فطرة الله .

## ١- الانحصار في دائرة الحس :

وأول هذه الحجب : هو الانحصار في الماديات والمحسوسات التي يعيش فيها الأطفال ، ولا يعرفون غيرها .

فهؤلاء الناس أشبه بالأطفال في عقولهم وتفكيرهم . إنهم يقولون : إذا كان الله موجوداً ـ كما يقول المؤمنون ـ

فلماذا لا نراه بأعيننا ، ولا نُدركه بحواسنا ، كما نرى ونُدرك سائر الموجودات ؟ وهل يسوغ لنا أن نؤمن بما لا نراه ؟

والجواب : أن حصر الموجودات فيما يُرى ويُحس غير صحيح ، فكم من موجودات لا تُحس ولا تُرى ، كما أن حصر وسائل المعرفة في الإدراك الحسي غير صحيح كذلك . فالإنسان يعرف ويدرك عن طريق البداهة والفطرة ، وعن طريق العقل والفكر ، وعن طريق البصيرة والإلهام ، كما يعرف ويدرك عن طريق الحس والرؤية .

إن علماء الفلك الآن يُقدِّرون وجود كواكب ، بيننا وبينها ملايين السنين الضوئية ، وقدَّروا مواقعها والأبعاد بين بعضها وبعض ، لأن وجودها في المواقع التي حدَّدوها ، يفسر لهم آثاراً وظواهر معينة ، في حركة الكواكب التي رصدوها ، ويستدلون بما رأوه على ما لم يروه ، ويتبين بالملاحظات العلمية صحة الفرض الذي فرضوه .

فهل يُلام هؤلاء العلماء على إيمانهم بما لم يروه ولم يحسوه مع أنهم اهتدوا إليه بالمنطق الرياضي الذي يعتمد على الأرقام لا على الأوهام ؟ .

إن هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على منطق بسيط ولكنه صادق ، هو الاستدلال بالأثر على المؤثر ، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذواتها ، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون « الذرَّة» واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة مع إنهم لم يروا الذرَّة حتى الآن ، كل ما انتهوا إليه بوسائلهم الألكترونية الجبارة أنهم استطاعوا أن يروا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه .

فكيف نُسلِّم بهذا المنطق ـ منطق الاستدلال بالآثار ـ ونستخدمه في علوم الطبيعة والفَلك ثم ننكره في معرفة الخالق الأعلى ؟

يقول الدكتور البحَّاثة « دى نوى » :

« كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ، على الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي ، لا يلزمه أن يتصور « الله » إلاَّ كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب ، فإن التصور في كلا الحالين ناقص وباطل.

وليس الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي . وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب»[1].

## ٢- الغفلة :

إن ثاني هذه الحُجب هو الغفلة ، الغفلة التي تغشى بعض الناس ، فتصيب أفكارهم بالشلل وقلوبهم بالعقم ، وتعطل المعرفة والإدراك لديهم ، فكل همهم ملء البطون وإشباع الشهوات والتمتع بما يتمتع به الأنعام ، وهؤلاء هم حطب جهنم ووَقود النار ، وهم الذين قال الله عنهم : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩).

وإنما كانوا أضل من الأنعـام ، لأن الأنعام لم تُمنح من العقل والمواهب والنِعَم ما مُنِحـوا ، كمـا أن الأنعـام تؤدي مهمتها التي خُلقت لها ولا تتمرد عليهـا ، مـن درٍّ ونسـل ،

---

(١) «عقائد المفكرين في القرن العشرين» للعقاد .

أو صوف ولحم ، أو ركوب وحمل . فإذا غفل الإنسان عن ربه الذي خلق لمعرفته وعبادته وخلافته في أرضه ـ فهو أسوأ منها منزلة وأضل سبيلاً .

### ٣- التقليد :

والحجاب الثالث هو التقليد : الذي يُفقد الإنسان شخصيته ، ويجعله يفكر بعقل غيره ، فإذا نشأ في بيئة كافرة ملحدة ، أو تتلمذ على أناس ملحدين ، سلَّم إليهم زمام نفسه ، وعاش معهم ذيلاً وإمعة ، يؤمن بما آمنوا ، ويكفر بما كفروا ، فمن الناس من يُقلِّد سَلَفه وآباءه ، ومنهم من يُقلِّد كبراءه وزعماءه ، ومنهم من يُقلِّد أساتذته ومعلميه ، وكل هذه الألوان من التقليد حُجب وسدود ، تحول بين الناس وبين الإيمان بالحق . ولهذا حمل القرآن عليها وعلى أصحابها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ

عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠، ١٧١) ويعرض لنا حال الزعماء ومقلديهم يوم القيامة فيقول : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٦، ١٦٧).

## ٤- المكابرة :

أما رابع هذه الحُجب وهو أكثفها وأغلظها فهو المكابرة والعناد . إن دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الضمير ، ودلالة الوحي ، ودلالة التاريخ ، كلها وأضعافها وأضعاف أضعافها من الدلائل - لن تقنع أولئك المكابرين الذين يسدُّون آذانهم لئلا يسمعوا صوت الحق ، ويُغشون أعينهم لئلا ترى النور ، ويوصدون قلوبهم كيلا ينفذ إليها شعاع من الهدى . إنهم يجادلون ليشوشوا لا ليفهموا ، وليغلبوا لا ليقنعوا ، إنهم كما وصفهم الله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٨، ٩).

إن المعاند المتعصب لا يقنعه ألف دليل ودليل ، ولن يهتدي إلى الحق ولو برؤية العين ، ولمس اليد ، وإدراك الحس . وقد طلب المشركون الجاحدون برسالة محمد ﷺ أن يُنَزَّل عليهم كتاباً من السماء يشهد له بالرسالة ، أو يصعدوا هم إلى السماء ليسمعوا شهادة الملأ الأعلى بنبوته، فردَّ القرآن الكريم على تعنتهم وسخف مقترحاتهم، وبيَّن دخيلة أنفسهم بقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧). وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾
(الحجر:١٤،١٥)

حتى لمس اليد ، ومشاهدة العين ، يستطيع المتعصب المكابر أن يَماري فيهما ، وأن يتهم يده التي لمست ، وعينه التي أبصرت ، ويدَّعي أنه كان مخدَّراً ، أو مسحورا ، أو ما شاء له عناده وهواه . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس:١٠١).

وما أبلغ القرآن وهو يجعل الآيات المبثوثة في النفس والآفاق عبرة لأصحاب العقول والقلوب وحدهم لا لغيرهم: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، أو ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٣) ذلك لأن المعاند المكابر لا يتفكر ولا يعقل ولا يذكر ولا يسمع، ومن كان هذا حاله فليس يهتدى إذن أبداً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧).

إن ألف دليل ودليل لا تكفي لإقناع من «جمَّد» عقله، وأغلق قلبه، وأصر على الجحود والإنكار، وكل شيء في الأرض أو في السماء مقنع لمن يريد أن يقتنع، وهاد لمن يريد أن يهتدي.

فيا عجبا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟

ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

* * *


النادي الشبابي

# محتويات الكتاب

## دلالة التاريخ

(٩٠–٩٤)

## الحجب التي تحول بين الناس وبين الله

(٩٥–١٠٢)





مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٨٢٧٨٥١


النادي الشبابي